الرتب العلميّة في الدولة العليّة

لجناب الحبيب النسيب السيد محمّد الهادي بيرم

تابع ما قبله

الدور الثالث – عصر السلطان سليمان القانوني

يطلق الاوربيون على السلطان سليمان لقب الكبير او العظيم وقد اكتفى العثمانيون بتسميته بالقانوني وهو افضل لقب يمكن ان يفتخر به ملك جعل العدل في الرعيّة شعارهُ فانهُ لما ارتقى الى سدّة الملك كان قد مضى على السلطنة العثمانيّة اكثر من مئتي عام واتسعت اتساعاً عظيماً وانضمّ تحت لوائها امم كثيرة وشعوب مختلفة فرأى انهُ لا بدّ لها من نظام جديد يكفل حسن سيرها وخير مستقبلها فوضع هذا النظام وجعل لكل طائفة قانوناً خاصاً بها ولم تزل قوانينهُ مرعيّة الاجراء معمولاً بها في اكثر موادها ما عدا الامور التي اقتضى الزمان تحويرها او ابدالها طبقاً لمقتضيات الاحوال واحتياجات الرعايا. وقسم المدرسين الى عشر مراتب (١) ابتداء خارج (٢) ابتداء داخل (٣) حركت خارج (٤) حركت داخل (٥) موصلة صحن (٦) صحن ثمان (٧) ابتداء التمثلي «اي الصينية» (٨) حركت التمثلي (٩) موصلة سليمان (١٠) سليمانية . ومن هذا الترتيب يظهر انهُ زاد على مدارس جدهِ الفاتح بان بنى جامعهُ الشهير العديم المثال في الاستانة وجعلهُ أعلى المناصب في التدريس . وزاد مرتبات المدرسين ايضاً فجعل ادنى مرتباتهم ٥٠ اقجه في اليوم بعد ان كان ٢٠ اقجه وخصص لمدرسي جامعهِ ٧٠ اقجه يومياً وبنى بجانبهِ مدرسة مخصوصة للحديث النبوي الشريف سماها دار الحديث كما بنى دار الشفاء وهي اول مستشفى اقيم في قارّة اوربا على ما حققهُ جودت باشا وجعل بجانب دار الشفاء مدرسة مخصوصة للطب وبنى اربع مدارس حوالي جامعهِ جعلها بمثابة المدارس التحضيريّة للانتظام في سلك طلبة ذلك الجامع كما جعل دار الحديث أعلى مراتب المدارس على الاطلاق ومدرسها هو اقدم المدرسين واعزهم شأناً وقرّر ان القضاة والحكام الشرعيين المعبر عنهم بالموالي لا ينتخبون الاّ من بين هؤلاء المدرسين واعفى جميع العلماء من الضرائب بأنواعها وأمّنهم على املاكهم فلا تجوز مصادرتهم ولا امتداد الايدي اليهم بل ان املاكهم تتناقل في ذريتهم بالوراثة ولا تعود للخزينة عند وفاتهم كما هي في بقيّة رجال المناصب في الدولة فكان ذلك سبباً عظيماً لاقبال الناس على العلم والتعليم والانتظام في هذا السلك الجليل

وقد كان السلطان سليمان من شعراء عصره المعدودين وكتّابهم المشهورين وهو يمضي آثاره باسم « محبي » وعاصره « باقي » اكبر شعراء الترك . وكثر عدد العلماء والادباء والشعراء في زمنه . وكان من جملة رجال دولته في وظيفة رئاسة الكتّاب المعبر عنها الآن بنظارة الخارجيّة احمد فريدون بك صاحب « مجموعة المنشئآت » التي جمع فيها محررات سلاطين آل عثمان لغاية السلطان مراد الثالث وكان مشهوراً بالادب وحسن الانشاء . وصاهره السلطان فأزوجهُ ابنتهُ وهو شرف رفيع وفخر منيع لمن يناله من رجال الدولة الى الآن . ومن جملة معاصريه العالم الجليل ابو السعود افندي صاحب التفسير والفتاوى النفيسة التي لم تزل المرجع المهم بعد المجلة في الاحكام لهذا العهد

وبلغت السلسلة العلمية في زمن السلطان سليمان الاول أعلى درجات ترتيبها ونظامها فلزمها بمقتضى القانون الطبيعي الرجوع والتقهقر على حسب قول من قال

اذا تمّ أمر بدا نقصهُ فحاذر زوالاً اذا قيل تمّ

فان شدة احترام هذا السلك الجليل سلك العلماء وتخصيصهُ بمزايا وامتيازات كجعل أهله مصونين من القتل والمصادرة ونظر الناس اليهم نظر التبجيل والاعظام حتى كان من يقول منهم في قضية « هذا امر الله » تلقى الكلُّ قولهُ بالسمع والطاعة ولا يتجاسر احد على مخالفته ولو كان من اعظم رجال الدولة واذا عرض احدهم للدولة شيئاً كان لكلامهِ وقع عظيم واذا تجاسر بعض الظلمة على ظلم احد من الناس حال العلماء دونهُ فصاروا سبباً في انتظام احوال البلاد وعين الرحمة للعباد كل ذلك صار سبباً لدخول الاختلال والاعتلال على الطريق العلمية اذ ان الوزراء والكبراء واعيان العلماء انفسهم اتخذوا هذا السلك ملجأً لاولادهم واستعملوا نفوذهم في تنشئة اولادهم في سلك العلمية حتى ولادتهم ثم يترقون بحكم القانون بحيث يصلون الى رتبة التدريس والمولى قبل بلوغهم سن الحلم وصارت وظائف القضاء تعطى لاهل الجاه فينيبون عنهم من يقوم باعمالها ويتفرغون هم لقبض راتبها وجرايتها بغير ان ينتقلوا من الاستانة ولا يراعون في النائب شرط العلم والمعرفة فكثر دخول الجهال والظلمة في هذه الوظائف العالية واستعملت الدراهم للحصول على شهادات التدريس والملازمة في المدارس وكُتب كثير من ضباط الجيش بصفة معيدين للدروس مع خلوهم من المعارف . وجملة القول ان الطريق العلميّة صارت اسماً بلا جسم في الغالب . ومن رام زيادة البسط فعليهِ بمراجعة تاريخ الحجة العلامة الوزير جودت باشا فانهُ نشأ في هذا السلك الجليل الى ان حاز رتبة قاضي عسكر ثم انتقل

الى الوزارة السامية وتقلب في اعلى مناصب الدولة واطلع على نظاماتها ومحفوظات اوراقها والف تاريخة النفيس وجمع فيه زبدة ما اطلع عليه فهو تاريخ جدير بكل رعاية وعناية « ورب الدار ادرى بما فيها »

اما في الوقت الحاضر فان الرتب العلمية محصورة في ما ياتي : وهي ان الطالب اذا اتم التعليم وحاز درجة الملازم والمعيد توجه اليه رتبة مدرس في الجهات والمقصود بالجهات ان يكون في ادرنة او في بروسة. ولاكثر مدرسي بروسه معاش . ثم ينتقل الى التدريس في استانبول ولجميع مدرسي استانبول معاش ايضاً ثم ينتقل في الدرجات الآتية حسب الترتيب الآتي وهو ابتداء خارج. ابتداء داخل. حركة خارج. حركة داخل. ويقال لكل هولاء مدرسين وتسمى شهاداتهم بالرؤوس ثم ينتقل الى موصلة صحن ثم الى صحن ثمان وابتداء التمثلي وحركت التمثلي وموصلة سليمانية وخامسة سليمانية (وهي المدارس الخمس التي بين موصله سليمانية ومدارس السليمانية الاربع) ثم سليمانية. ويقال لهولاء كلهم كبار المدرسين. ثم يترقى الى رتبة المولى واولها دار الحديث وهي المدرسة التي بناها السلطان سليمان قرب جامعه وخصصها لقراءة الحديث الشريف ثم ينتقل الى موالي المخرج اي الذين يتخرجون للقضاء وهذه الرتبة تشمل اسكدار والقدس وسلانيك وبكيشهر وغلطه وخواص رفيعه يعني ابي ايوب الانصاري وحلب وازمير وطربزون. ثم ان الحائزين لهذه الرتبة منقسمون الى قسمين «مجردة» وهم الحائزون للاسم فقط « ودوريه» وهم الذين ينتظرون الدور لتولي منصب قضائهم فعلاً . ويتغير القضاة كل سنة ولهذا تعطى الرتب لاناس متعددين وان كانت الوظيفة واحدة ولكن لا يتولاها بالفعل الا واحد فقط والباقون ينتظرون وصول الدور اليهم . وبعد رتبة المخرج يترقى الى رتبة بلاد خمسه ويقصد بها مصر وبرسه والشام (دمشق) وادرنه وفليه . غير انه بعد دخول مدينة فليه في امارة البلغار يظن انها لم تبق داخلة ضمن « بلاد خمسه » بل ابدلت ببغداد . ثم بعد موالي بلاد خمسه يترقى الى باية الحرمين الشريفين وهي وظيفة القضاء فيهما ثم بعد ذلك يترقى الى منصب باية (قضاء) استانبول ثم الى رتبة صدور اي قضاة العسكر وتنقسم الى قسمين اناطولي وروم ايلي وهي اعلا الدرجات العلمية وينتخب شيخ الاسلام من الحائزين على رتبة الصدور السامية.

ولما كان استعمال هذه الرتب نادرًا في مصر رأيت ان اضعها في الجدول الآتي مع بيان الرتب التي تقابلها في اصول التشريفات من الرتب المألوفة هنا وذلك لزيادة الايضاح

الرتب العلميّة	السيفيّة او العسكريّة	القلميّة او السياسيّة	الملكيّة او الاداريّة
قاضي عسكر روم ايلي ثم اناطولي	مشير (باشا)	وزير (باشا) بالا	وزير (باشا)
قاضي استانبول	فريق (باشا)	اولى صنف اول	روم ايلي بكلربكي (باشا)
باية الحرمين	ميرلوا (باشا)	اولى صنف ثاني	ميرميران (باشا)
موالي بلاد خمسة	ميرالاي (بك)	رتبة ثانية صنف ممتاز	ميرامرا (باشا)
موالي مخرج	قائمقام (بك)	رتبة ثانية صنف ثاني	باية الاصطبل العامر
كبار المدرسين	يكباشي ثم الاي اميني	رتبة ثالثة	ركاب همايون قبوجي باشي
مدرسين	صاغ قول اغاسي	رتبة رابعة	خواجكان ديوان همايون
قضاة بدون رتبة	يوزباشي ثم ملازم	رتبة خامسة	رتبة خامسة

ويمكن توجيه هذه الرتب تدريجًا على حسب البيان السابق بل انهُ يمكن توجيه أية واحدة منها ولو اعلاها الى شخص لم يحز الرتب الاخرى ٱلَّتي دونها وذلك متعلق بارادة الحضرة الشاهانية وما يعرض لها من باب المشيخة الاسلامية على حسب مقتضيات الحال ومزايا الشخص المنعم عليهِ . ولكل رتبة من هذه الرتب لقب خاص يخاطب بهِ صاحبها في المكاتبات فيقال للمتولين وظيفة النيابة عن القضاة الذين لم ينتظموا في سلك الرتب العلمية « مودتلو افندي » وللمدرسين وكبارهم « مكرمتلو افندي » ولموالي المخرج وبلاد خمسة « فضيلتلو افندي » ولقضاة الحرمين المحترمين « فضيلتلو افندم » ولقضاة استانبول « فضيلتلو افندم حضرتلري » وللصدور سماحتلو افندم حضرتلري » ولمقام شيخ الاسلام « دولتلو سماحتلو افندم حضرتلرسيه » ولمعزولي مقام المشيخة « دولتلو فضيلتلو افندم حضرتلري » وهي القاب رسمية لا يمكن مجاوزتها او الخروج عنها في المخاطبات الرسمية كما ان لكل رتبة من هذه الرتب لباساً مخصوصًا في المواكب الرسمية ولما كانت الرتب

المعتبرة منها في المقابلات السلطانية تبتدئ من رتبة حرمين اقتصرنا على ذكرها دون سوادها فجبة قضاة الحرمين سوداء وجبة باية استانبول بنفسجية وجبة صدور الاناطولي خضراء وجبة صدور الروم ايلي حمراء وجبة شيخ الاسلام بيضاء وكلها مطرزة الصدر والرقبة واليدين بالقصب. ويعطى لصدور الروم ايلي غالباً النشان العثماني الاول بمجرد توجيه هذه الرتبة اليهم ولصدور الاناطولي المجيدي الاول ولباية استانبول المجيدي الثاني ولباية الحرمين المجيدي الثالث وربما اختلفت هذه القاعدة في بعض الاحيان

وجملة القول ان الرتب العلمية في الدولة العلية كانت وظائف علمية حقيقية ومناصب تدريسية كما يدل اسمها المحفوظ لهذا العهد

نصيب مصر من ترعة السويس

وعبرة للمعتبر

تتخلص مصر هذا العام من دفع مئتي الف جنيه وهي جانب صغير من الغرامة المالية الكبيرة التي تدفعها كل عام لمدائنيها جزاء ما ذاب من مهج ابنائها وما أريق من عرق جبينهم في انشاء ترعة السويس التي فجرت على اصحابها ينابيع الثروة وحملت مصر حملاً مرهقاً لا امل لها بالنجاة منهُ فوق المضار الادبية والمادية التي اوقعتها بها

وقد فصلنا في الاجزاء الماضية من المقتطف والمقطم ما جرى من الغش والمكر في ترعة بناما وما آل اليهِ امرها لكن تاريخ السويس لا يقل عن تاريخ تلك الترعة في منكراته. ولو انصف الماليون الاوربيون لجازوا الكونت ده لسبس على ترعة السويس كما جازاهُ الفرنسويون على ترعة بناما ولاجتمع اصحاب السهام منهم وتنازلوا عن نصف ما بيدهم للقطر المصري مالاً حلالاً وكفارة عن استحلالهم مال الفلاح المصري وعرق جبينهِ . واليك بيان ذلك

خطر ايصال البحر الاحمر بالنيل او ببحر الروم لكثيرين من الملوك من قديم الزمان فاحتفر رعمسيس الكبير ترعة توصل النيل بالبحر الاحمر قبل التاريخ المسيحي بألف وثلثمئة سنة فصارت السفن تجري من بحر الروم الى النيل ومنهُ الى البحر الاحمر ولكن ذابت في حفر تلك الترعة مهج مئة وعشرين الفاً من الرجال ثم سفت الرياح عليها الرمال فطمرتها . ولما استولى الفرس على مصر احتفر داريوس الماذي هذه الترعة ثانية واجرى